مأساة محمد بن القاسم

قتلوه فى السجن، وهو الذى فتح بلاد الهند لا لشىء إلا أنه يمت بصلة قرابة للحجاج بن يوسف الثقفى!

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد بن القاسم فتح بلاد السند وعمره ١٧ عاما !

لا أعرف لماذا يتداعى إلى ذهنى كلما قرأت عن الفاتح العظيم محمد بن القاسم الذى استطاع أن يصل بجيوشه إلى السند، ويرفع راية الإسلام عليها، كلمة الشاعر نزار قبانى إن تاريخنا كله كربلاء.

فالشاب الذى حقق انتصارات شديدة الإبهار وهو لم يتجاوز السابعة عشرة ربيعًا، كان مصيره السجن والاغتيال !

لو رجعنا إلى الوراء عبر ضباب السنين إلى أيام الدولة الأموية حيث عبق الانتصارات الإسلامية فى كل مكان، سواء فى الشمال الإفريقي، أو ما وراء النهر.

لابد أن يلفت أنظارنا هذا الشاب الجسور الذى يعزى إليه ضم باكستان الحالية إلى الحكم الأموى أنه محمد بن القاسم الثقفي.

كان عبقرية عسكرية نادرة رغم سنه الصغيرة، فعندما عرض عليه الحجاج بن يوسف الثقفى أن يفتح بلاد السند «الهند حاليا» فإنه خطط على الفور لتحقيق هذا الأمل، وكان جيشه يضم عشرين ألف مقاتل، وقد قسم هذا الجيش إلى قسمين:

قسم يسير به برًا نحو السند وقسم آخر أمره أن يتجه عن طريق البحر نحو شواطئ السند. ونجحت خطة القائد الشاب وحقق النصر.

وفتحت أمام ضربات جيشه الحصون والقلاع فى الهند، وكانت بلاد الهند من البلاد التى كان يرنو لفتحها الخليفة

العظيم عمر بن الخطاب، خاصة بعد أن تم له فتح بلاد الفرس، والقضاء نهائيًا على الأمبراطورية الفارسية، ولكن كان ابن الخطاب يخشى على جنوده من ارتياد أرض لم يطأوها من قبل، ولم يعرفوا عن تضاريسها الشيء الكثير الذى يمكنهم من الحروب فى تلك البلاد المجهولة !

ولكن فى عهد الوليد بن عبد الملك رأى الحجاج بن يوسف الثقفي، وخاصة بعد أن تمكن من القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير فى الشام، وكسر قوة الخوارج فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان.

وكان الحجاج يعرف مقدرة ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي، فعهد إليه مهمة غزو الهند ونشر الحضارة الإسلامية فى هذه البقاع.

وقد سعد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك باقتراح الحجاج بن يوسف الثقفي، بأن يقود ابن عمه محمد بن القاسم جيش المسلمين إلى الهند، وخاصة أن فى عهده كانت الفتوحات الإسلامية تحقق انتصارات مذهلة فى كل الجبهات سواء فى الشرق فى اتجاه بلاد ما وراء النهر، أو فى الغرب والشمال الإفريقى حيث فتحت جيوشه بقيادة موسى بن نصير وطارق ابن زياد أن تضم إلى الشمال الإفريقى بلاد الأندلس، بل أن موسى بن نصير كان يتمنى أن يوافق الخليفة على أن يعبر بجيوش الإسلام إلى فرنسا، ثم يحتل إيطاليا، ويتجه بجيوش الإسلام للاستيلاء على القسطنطينية حيث يعود بعد هذه الفتوحات الطموحة إلى دمشق !

ولكن الخليفة رفض خطة موسى بن نصير، وكان يرى أن يحافظ المسلمون على المساحة الهائلة من الأرض التى رفعوا راية الإسلام عليها، وأن يؤمنوا بها دعائم الإسلام، حتى يشعر أهالى هذه البلاد بأن الإسلام هو دين العدل والتسامح والحرية، وعدم إرغام أحد فى الدخول فيه.

فى وهج هذه الانتصارات قاد محمد بن القاسم جيشه نحو السند!

ويروى الرواة حكاية طريفة عن السبب الذى دعا الحجاج بن يوسف الثقفى إلى غزو الهند، وملخص هذه الحكاية أن ملك «سيلان» كان قد أهدى الحجاج بن يوسف الثقفى سفينة تحمل نساء مسلمات من اللائى كن يعشن فى هذه الجزيرة للعودة إلى بلادهن، غير أن بعض قراصنة «الديلم» هاجموا السفينة وأسروا النساء، وصرخت النساء: واحجاجاه!

وعلم الحجاج بذلك، وأن نساء المسلمين استغثن به فأرسل إلى ملك «الديلم» يطالبه برد السفينة وركابها، إلا أن ملك «الديلم» لم يأبه برسالة الحجاج، فقرر الحجاج أن يلقنه درسًا لا ينساه، أخذ الحجاج موافقة الخليفة على غزو الهند، وعقد القيادة لابن عمه محمد بن القاسم، وزوده بالعدة والعتاد، وكان جيشه يضم عشرين ألف مقاتل من خيرة جند المسلمين.، والهدف: ضم الهند وتأديب ملك الديلم.

وسواء أكانت هذه الحكاية صحيحة أو من خيال الرواة، فالذى حدث بالفعل أن الحجاج بن يوسف كان وراء العمليات العسكرية داخل الأراضى الهندية، وأنه لم يأل جهدًا فى توفير الجنود والعتاد لإنجاح هذه المهمة.

وبدأ محمد بن القاسم مهمته الصعبة، بادئًا نقطة انطلاقه من مقاطعة «مهران» جنوب فارس، وقسم جيشه إلى قسمين:

قسم يتجه إلى الهند عن طريق البر.

وقسم بحرى يحمل السلاح والعتاد وبعض جيشه ليساعده فى الزحف والتوغل فى بلاد السند، وتقدم صوب مدينة «الديبل» ثم أخذ يزحف وهو يضم المدن فى الطريق إليها، وحاصر «الديبل» بواسطة أسطوله وسقطت بعد ثلاثة أيام، ودخلها ظافرًا، ثم بنى كعادة المسلمين فى البلاد المفتوحة مسجدًا

وما كادت «الديبل» تسقط تحت سنابك جيوش المسلمين، حتى شعرت بقية البلاد أنه لا قبل لهم بمحاربة جيوش المسلمين، فعقد بعضهم الصلح مع محمد بن القاسم، ورضخ البعض الآخر تحت وطأة الهزيمة له.

وكان «داهر» ملك السند معجبًا بقوته لأنه يملك الجنود والسلاح والفيلة التى يستخدمها فى الهجوم، وكان يخيل إليه أنه سوف يهزم جيش المسلمين بهذه الفيلة، ولكن محمد ابن القاسم أمر جنوده بأن يقذفوا الفيلة بقذائف النفط المشتعلة،

وسرعان ما تغير نيران المعركة لصالح المسلمين، عندما هربت الفيلة من النار، فتقدم فرسان المسلمين فى أعقاب تقهقر جيش «داهر» وانتهت المعركة بالنصر الحاسم، وسقط «داهر» قتيلا.

وواصل محمد بن القاسم زحفه الظافر فى مختلف أرجاء السند حتى وصل إلى البلقان فى الشمال وانتشرت المساجد فى البلاد المفتوحة ولأن الإسلام دين الفطرة، فقد أخذ الناس فى هذه البلاد فى الدخول فيه، وشجعهم على ذلك أيضًا ما رأوا فى القائد الشاب من تواضع وحلم وشجاعة، وكان فتح السند فى عام ٨٩ هـ .

ومات الحجاج بن يوسف الثقفى ٩٥ هـ وبعد عام مات الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، الذى عين «صالح بن عبد الرحمن» واليا على العراق، وكان «صالح» هذا شديد الكراهية للحجاج بن يوسف الثقفي، وكان يريد الانتقام منه متمثلاً فى ابن عمه الفاتح العظيم محمد بن القاسم !

لقد أوغر «صالح بن عبد الرحمن» قلب الخليفة سليمان بن عبد الملك على محمد بن القاسم، وكان الخليفة نفسه يكره الحجاج بن يوسف، وأراد الانتقام من ابن عمه فاتح الهند ! !

وكان هذا التصرف الشائن مثيرًا للدهشة، فما جريرة ابن القاسم؟ وهل هو مسئول عن تصرفات ابن عمه؟

كما أن المنطق نفسه ضد هذا التفكير الغبى، فهل يكون جزاء الفاتح العظيم، الذى يتحدث الناس بكل إجلال عن شرفه ونبله، هل جزاؤه أن تلفق له التهم التى تؤدى به إلى ظلمات السجون أو الموت؟

ولكن متى كان للمنطق والعقل من جدوى عندما تعشش الأحقاد فى النفوس !

وتمتلىء القلوب بالأهواء، وتلعب برؤوسها الشياطين!

لقد عزل الرجل وهو فى أوج انتصاراته !

عزل الرجل وهو يرى نتيجة انتصاراته بأن الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، وليت الأمر وصل إلى حد العزل وتركه يعيش بقية حياته يجتر أحلى الذكريات، بل اتهموه تهما ظالمة، اتهموه بأنه أقام علاقة مع ابنة داره ملك السند! وكانت ابنة هذا الملك تريد أن تنتقم من الذى مزق ملك والدها، فكذبت عليه وقالت ما يدينه!

لم يستمعوا إلى كلمات محمد بن القاسم وهو يدافع عن نفسه، وتبقى هذه التهم الظالمة عنه، وأنها قالت ما قالت انتقاما لمقتل أبيها، وهزيمته وزوال ملكه، وحكموا عليه بالسجن!

وحزن عليه أهالى البلاد المفتوحة، وهم موقنون تماما بأنه سجن ظلمًا وعدوانًا، وعذب الرجل فى سجنه حتى الموت !

مـات البطـل الشـهيد ولم يتجـاور عمـره الرابعـة والعشـرين عامًـا، بعـد أن ضـم للإسـلام دولـة «باكسـتان» المعاصـرة.، وصاحب الفتـح الـذى يجعـل الملايـين مـن سـكان الهنـد يعتنقـون الإسـلام إلى اليـوم .

مـات الشـاب الـذى فتـح الهنـد فـى ظلمـات السـجون، وبقـى اسمـه شـامخًا بـين صفحـات التاريـخ، بينمـا نسـى التاريـخ الذيـن أودعـوه السـجن، والذيـن تآمـروا عليـه، والذيـن قتلـوه !

بقـى اسـم محمـد بـن القاسـم ، الشـاب العبقـرى الموهـوب يردده كل مـن يعـرف معنـى البطولـة، وتضحيـات الجهـاد، والمـوت فـى سـبيل المبـدأ !

والـذى ظلمتـه الأرض لـن تظلمـه السـماء ، فهـو واحـد مـن الشـهداء الأبـرار .